عن ديوان البياتي :

« الذي يأتي ولا يأتي »

بقلم شوقي ضيس

« انا ان كنت سكران بخمرة المجوس فانا ذاك ، وان كنت كافرا او مجوسيا او وثنيا فانا ذاك ، لكل طائفة ظن فيّ ، اما انا فملك نفسي اكون كما اريد » .

وضع الحكيم عمر الخيام هذه الرباعية في ظروف عصره الذي شاع فيه اتهام المفكرين الاحرار بالزندقة . وشاع القتل والحرق ، حتى ان احد تلامذة الخيام قد اتهم بالزندقة وحمل مقيدا الى بغداد ثم صلب ، مما لا بد وان يكون قد اثر تاثيرا عميقا في نفسه الشاعرة ، ولكنه رغم هذه الظروف مجتمعة يمتلك الشجاعة ليقول كلمته ـ اما انا فملك نفسي اكون كما اريد ـ مؤكدا حرية الانسان في الاعتقاد والاختيار منذ ما يزيد على تسعة عشر قرنا من الزمان . ولم يكن هذا الاتهام سوى مظهر واحد من المظاهر العديدة التي سادت عصر الخيام . العصر الذي شاهد تفسخ الحضارة العباسية وسقوط الدولة البويهية وقيام الدولة السلجوقية والحروب الطاحنة بين الشرق والغرب والدعاوى الفوضوية الارهابية مثل دعوة الحشاشين بقيادة المدعو الحسن الصباح . العصر الذي شاهد الخلافات المذهبية العنيفة بين اصحاب المذاهب الفقهية المختلفة ، والصراع اللامبدئي بين رجال الدين ـ الشيء الذي دفعه الى كتابة مثل هذه الرباعية .

« قال شيخ لمومس : انت سكرى وفي كل ساعة في حضن حبيب . فقالت : كل ما قلته فيّ صحيح ولكن هل انت انت كما تظهر للناس » .

ان الخيام يلمح الى اختلاف الظاهر عن الباطن عند رجال الدين في عصره ، ويدعو الى ان يكون الانسان (هو هو) بنفس التعبيرات تقريبا التي يعبر بها مفكر معاصر مثل سارتر عن دعوته الى الصدق . ولم يكن باستطاعة الخيام ان يعثر على حل للمشكلات الانسانية في عصره بوصفه شاعرا او عالما او فيلسوفا (ذلك انه لم يكن هناك حل لهذه المشكلات خارج الزمن) وكانت الضرورة التاريخية تقتضي انتظارا طويلا ، كذلك لم يكن بوسع الخيام ان يهرب من هذه المشكلات الى عالم خيالي ، ذلك انه ليس بوسع الانسان الهروب من وعيه ، وقد كان الخيام من اكثر اعلام عصره سمة في الثقافة وخبرة بشؤون الحياة المتعددة . لهذين السببين : عدم استطاعته العثور على الحل وعدم استطاعته الهروب ، وقع اسير الاحساس المادي المتشائم كما يبدو في كلمات هذه الرباعية : « ايها الفلك ! اني غير مسرور بدورانك ، اطلق سراحي فاني غير خليق ان اقيد ، فان كنت تميل الى الحمقى والذين ليسوا اهلا للفضل فانا ايضا لست بالعاقل الكامل » . وظل الخيام سجين هذا الاحساس في كل اعماله واشعاره . ولكن الذي اعطى اعماله قيمة فلسفية عظيمة هو هذا الصراع المستميت والمستمر حتى النهاية ، بين رغبته الثائرة في تخطي حواجز الواقع المحيط وقهرها ، وتحقيق ذاته ، وبين احساسه العميق بعبث المحاولة . ـ هنيئا لمن عاش في هذه الحياة حرا ـ لقد كان بحق احد اعلام المدافعين عن الحرية في التاريخ ، حرية الانسان ضد القهر الاجتماعي والتاريخي والكوني . وكان من اشد هؤلاء المدافعين احساسا بضرورات الواقع وكراهيته لها ، مما ملأ تجربته الثورية بغنى الادراك الواقعي للحياة والانسان . وكان الخيام كذلك ثائرا فيلسوفا لا تفرقه قضايا الحياة الجزئية ويدفعه طموح لا يرحم الى محاولة العثور على المعاني الكلية للعذاب واللذة والحياة والموت ، وكان الخيام احد الجسور التي تحقق عن طريقها التفاعل الخلاق بين الحضارة العربية والحضارات الاخرى في عصره . ففتح النوافذ امام ابعاد جديدة في الفكر الانساني ، واقام اعماله الفلسفية والعلمية ورباعياته الشهيرة على اساس عريض وعميق في الثقافة . الشيء الذي جعل منها منبعا يستلهم الابداع في العصور التالية .

لقد مضت قرون طويلة على موت هذا الشاعر الفيلسوف وتفجرت الثورات في انحاء العالم باسم حق الانسان في الحرية ، حرية الاعتقاد ، وحرية الاختيار ، واعلنت حقوق الانسان وابرمت مواثيق الامم وظهر فلاسفة آخرون يحملون اللواء تحت اسماء جديدة ـ العقد الاجتماعي ـ الضرورة التاريخية ـ المجتمع الاشتراكي ـ الوجودية .

وفي استطاعتنا ان نقول بان كل هذه المواقف والاحداث انما تؤكد مدى اصالة دعوة شاعرنا الفيلسوف وتؤكد ايضا الى اي حد يمكن ان يدعم تاريخنا الثقافي واقعنا الحاضر اذا انصبت الرؤية على المكان الصحيح بالاسلوب الصحيح ، الشيء الذي تنبه له شاعرنا المعاصر عبد الوهاب البياتي في ديوانه السابق (سفر الفقر والثورة) حيث اتخذ من حياة الصوفي الثائر الشهيد الحسين بن منصور الحلاج ، ومن حياة شاعرنا العظيم ابي العلاء المعري ـ لا اقول اوعية يصب فيها مضمونا ثوريا معاصرا ـ وانما جسورا تصل بين تجربتنا الحاضرة وتاريخنا الثوري الذي يمكن ان يهب هذه التجربة العمق والخصائص المميزة والديمومة . فالانسان بلا تاريخ ليس اكثر من دمية تشكلها الظروف وتستطيع تحطيمها ، والشعوب بلا تاريخ وجود يتهدده الانقراض ، والفكرة بلا تاريخ فضول عارض لا تحكمه الضرورة . ويصدر ديوان الشاعر الاخير « الذي ياتي ولا ياتي » (*) ليصب في المجرى نفسه متخذا من سيرة الخيام موضوعا له .

ويؤكد الشاعر في تصديره للديوان بانه يقصد سيرة الخيام الباطنية (اي الوجود المتصور وراء احداث حياته المعروفة وليست احداث حياته نفسها) الخيام الذي عاش في كل العصور . (اي ما يتصف من مواقفه بالطابع الانساني العام . والممكن ان يشترك فيها معه ابطال آخرون في عصور مختلفة وليست المواقف المتعلقة بمشاكل فردية او عارضة) منتظرا الذي ياتي ولا ياتي (اي منتظرا الوجود بحكم الواقع والصراع ، غير المتحقق بحكم الظروف ، وبتعبير آخر منتظرا انتصار الحرية) .

وفي راينا انه لم تكن هناك ضرورة لهذا التقديم ما دام الديوان نفسه يطرح الموضوع على نحو فني . على ان السؤال المهم الذي يثار في بداية مناقشتنا للديوان هو لماذا اختار البياتي حياة عمر الخيام بالذات اطارا لديوانه الجديد ؟ الاجابة السريعة : ان الخيام كان احد المدافعين العظماء عن الحرية في تاريخنا . ولكن الخيام ليس هذا

(*) صدرت الطبعة الثانية حديثا عن « دار الاداب » بيروت .

فحسب وانما هو قبل ذلك يحمل خصائص تميز ثوريته . بل انه يشترك مع ابي العلاء في معظم هذه الخصائص ومع الحلاج في كثير منها مما يدعو الى طرح السؤال من جديد . وفي اعتقادنا انه تستحيل الاجابة المرضية عن هذا السؤال دون ربط الخصائص المميزة لهؤلاء الابطال بواقعنا العربي المعاصر ، واقع الحياة ، وواقع الانسان .

واذا أخذنا في تعداد اوجه التشابه بينهم فاننا لن ننتهي ، وقد يخرج بنا هذا عن طبيعة الدراسة ، فحسبنا اذن ذكر هذه الصفات العامة المنبثقة مع ملاحظة ان اهميتها تبرز فيما تدل عليه ويختفي وراءها ، وقد يسهل بعد هذه التحديدات ادراك لماذا كان كل منهم بطلا مغتربا في عصره . ولماذا تميزوا جميعا بالصراع في جبهتيه في وقت واحد ؟ الصراع مع الذات على أساس صوفي او فلسفي مرتبط بالغربة المكانية والاجتماعية ، والصراع مع المجتمع الناشىء من الاختلاف مع المفاهيم السائدة عن الحياة والاشياء والقيم . لندرك بعد ذلك كيف ان هذا الصراع الثنائي الذي يجمع بين العمق الدرامي والعظمة الملحمية ، قد خلق وجودا فريدا في دلالته الذاتية والاجتماعية لكل من هؤلاء الابطال . وسنرى كيف تصطبغ شاعرية عبد الوهاب البياتي بهذا الوجود في ديوانه الاخير . وكيف ينعكس الواقع الذاتي والاجتماعي في تجربة الشاعر على سيرة الخيام من خلال الصياغة الشعرية في توافق وتقاطع خلاق يستثير الحاضر محملا بالماضي او الماضي منعكسا على الحاضر في صورة شعرية رائعة . واذا كان الديوان كما سبق ان ذكرنا قصيدة طويلة عن سيرة الخيام فهذا لا يدع لنا مجالا لدراسته في زاوية واحدة حيث يثير اكثر من قضية واكثر من مشكلة انسانية . صحيح أن القصيدة ككل تتمتع بوحدة الجو النفسي والفلسفي والصياغي وطريقته الخاصة في اثارة الذات الثقافي القومي والانساني محملا بعاطفة الشاعر ووجهة نظره الخاصة، لكننا نفضل محاولة الكشف عن القصيدة في تتابعها الزمني خلال الثمانية عشر مقطعا ، لعلنا نستطيع النفاذ في النهاية الى عالمها الخاص واكتشاف الاسس الفنية والفكرية التي تسيطر على هذا العالم .

١ ـ صورة على غلاف :

كان على جواده بسيفه البتار
يمزق الكفار
وكانت القلاع
تنهار تحت ضربات العزل الجياع

تبدا القصيدة بهذه الصورة المجسدة للحلم الانساني في التحرر من القهر الاجتماعي ، وهي صورة عامة جدا موجودة دائما على سطح الاشياء وملائمة تماما للغرض منها وهو تاكيد الرغبة العارمة التي تملأ وجدان الانسان العادي البسيط في تحقق العدل . ولكن ما أن نترك هذه الصورة حتى نواجه بصيحة ممتلئة بالامل الذي يلفه الغموض :

مولاي : لا غالب الا الله
فلتغسل السحابة
ادران هذي الارض ، هذي الغابة .

ويتحول الامل الغامض لنرى وجهه الآخر احساسا ثقيلا بالعجز امام الموت :

مملكة الموت على اسوارها الحراس
يرتق النعاس
عيونهم ، فلتفتح البوابه
وليدخل الغالب والمغلوب

وينتهي المقطع الاول في القصيدة بصورة الواقع المستسلم امام فوهة العدم والنشل والزيف :

وان هذي النار
الشاهد الوحيد في محكمة الزمان
تصدع الديوان .
واحترقت أوراقنا الخضراء في الحديقة المعطار
والعندليب طار .

ولقد احس الفنان المبدع « آدم حنينه » بالمعنى الكلي الذي يثيره هذا المقطع . لقد استوعبت اللوحة المعنى الاساسي في القصيدة حقيقة العالم المحترق تعبر عنه المساحة البرتقالية المستديرة والازهار المحترقة ، والانسان الصغير في مواجهة ضخامة هذا العالم ولكنه الانسان المتجه الى اعلى والمحاط بخضرة الامل . اننا نشعر بعمق امام كل من الصورتين الشعرية والتشكيلية : بروح الشرق التقليدية القديمة ، ولكننا نشعر ايضا بشيء جديد يولد ويواجه الحقيقة المفزعة رغم كل شيء . ان التناقض التراجيدي الناشيء من قدرة عقل الانسان على التجديد الذي يبتعد به احيانا عن الحقيقة ، حقيقة الحياة ، وحقيقة نفسه ، ومن تكوينه المادي الذي يجبره على الشعور بقصوره عن امتلاك العالم ، وامتلاك ذاته في نفس الوقت ، هذا التناقض هو الذي يجسده الشاعر في المقطع الاول بين صورة الحلم تلك المرسومة على الغلاف وبين ايمانه الخرافي بالسحابة المنقذة وبين الاحساس المادي بالموت . انه يدخلنا بطريقة غير مباشرة الى جو عمر الخيام وعصره حيث الهوة بعيدة بين الحلم والتحقق وحيث الواقع الرازح تحت ضغوط القهر الاجتماعي . وهو حين يلجا الى التجديد في صياغة هذا المقطع بل واثارة التامل في عناصر شكسبيرية ، يكون اقرب الى التوفيق في اكتشاف الصياغة الملائمة لشمول الاحساس بذلك التناقض الاجتماعي والكوني المراد توصيله .

٢ ـ الطفولة :

وندخل مع الشاعر بالمقطع الثاني فيما وراء الغلاف من الوجود الداخلي للانسان فيحدثنا عن الطفولة ، وهنا لا تعني عند الشاعر مرحلة مبكرة في حياة الانسان او البشر ، وانما تعني حياة البراءة التي لا تمنح ، وانما تنتزع ، لا تاتي من التامل وانما ترتبط بالفعل حين يتحول المعتقد المتعالي الى سلوك تلقائي ، وحين يتحول العذاب الى طاقة تفتح الاعين على الجانب المدهش من الحياة والاشياء :

بثمن الخبز اشتريت زنبقا
بثمن الدواء
صنعت تاجا منه للمدينة الفاضلة البعيدة
لامنا الارض التي تولد كل لحظة جديدة
نمت على الارصفة الغبراء
اصطدت الفراشات ، وقعت في شراك النور .

ان الشاعر هنا لا يفكر بالصورة كما كان يفعل من قبل بحيث يمكن قراءته بسهولة ، فان الصورة الشعرية تظهر وكانها ذات ثقافة خاصة كالاشياء ، وهي تبدو وتمتد وتذوب في الصور الاخرى من القصيدة لتبني عالما سحريا لكل كلمة فيه معنيان ، المعنى المالوف المنفصل عن حقيقة الواقع رغم ارتباطه الظاهري به ، والمعنى الخاص المستمد من طبيعة البناء .

ولكن ما يميز عبد الوهاب البياتي رغم لجوئه الى هذا الاستخدام الرمزي للكلمات والصور عن غيره حتى الرمزيين انه يستطيع بقدر كبير من التلقائية أن يكشف عن الدلالة الواقعية المتمثلة في التناغم والتقاطع والتضاد في بنائه الصوري ولغته الشعرية . فالشاعر عندما يقول : « ولدت في جحيم نيسابور ـ قتلت نفسي مرتين » انما يستخدم كلمة القتل كاشفا عن وجهها الآخر الذي يعني المفارقة والتخطي فهو يولد في القصيدة مرتين :

الاولى ـ عندما تنفصل عنه ذاته لتقع في شراك الحلم بالمدينة الفاضلة .

الثانية : عندما تبحر ذاته باحثة عن مدينة لم يقف الشحـــاذ في ابوابها يوما .

وهو لم يعن بقتله لنفسه مرتين سوى مقارنة ذاته له مرتين .

الاولى : من أجل اعادة صياغة نفسها في عالم الحلم المثالي .

الثانية : من أجل اكتشاف واقع يعطي لوجوده قيمة ، رغم ان هذا المقطع ينتهي بسؤال ممتلىء باليأس : « متى ؟ اينهـا الشمطاء ؟ ـ ستمطر السماء ؟ وتولد الحقيقة ؟ ـ من هذه النفاية الغريقة ؟ » . الا ان هذا المقطع لا يخلو من مضمون ثوري يتمثل في ذلك البحـــث المدفوع بعاطفة قوية نبيلة ، وذلك التمزق بين السماء والارض بصرف النظر عن النتيجة .

٣ ـ الليل فوق نيسابور :

ما اصعب الميلاد في مدينة مثل نيسابور وسط الانقاض والتحطم واللصوصية والموت ، فبعد أن يصور الشاعر في بداية هذا المقطـع مدينة نيسابور التي مر عليها كل الغزاة في صورة بالغة القســـوة والفظاعة نكون مهيئـــين تماما لادراك مدى صعوبة الميلاد في مثـل هذا المحيط :

البشر الفانون
يحطمون بيضة النسر ، ويولدون ـ
من زبد البحر ومن قرارة الامواج
من وجع الارض ومن تكسر الزجاج

فيا له من ثمن فادح للسعادة التي قد يحققها الميلاد ، ثمن أكبر بكثير مما يتصوره العقل الانساني ، فبعد كل هذا التحطم والفرق والوجع ، لا بد وان يأتي الميلاد مختلطا بمرارة عميقة ، وكأنها صفقـة خاسرة لا تغري بالمحاولة ، اذا ما حكمنا في الامر موازين العقـــل ، ولكننا نحـــاول رغم كل شيء ، رغم الحكمة ورغم العـــذاب ورغم اللاجدوى : لنقرأ الكتاب بالمقلوب :

من أجل ان نضيء ليل نيسابور

٤ ـ في حانة الاقدار :

حين يفقد المثل الاعلى معناه فلا يبقى للادراك الا انتظار معجزة ، وحين ينعدم وزن الانسان في الحياة ويتأكد من ضياعه ، لا يبقى له سوى تلمس اللحظة الجميلة حتى وان كانت هشة عارضة ، لا يبقى له الا أن يؤمن بها . فالموت المدرب الخبير يقف له بالمرصاد وما مـــن فرصة للفرار :

وابحث عن الفراشة
لعلها تطير في هذا الظلام الاخضر المسحور
واشرب ظلام النور
وحطم الزجاجة
فهذه الليلة لا تعود

فلنحدث ثغرة نطل منها على الحلم ، ثغرة في جدار التشابـــه القاتل والحسم الرياضي والنفعية ، ثغرة في « مدن النمل التـــي تحكمها الارقام والبنوك » لنصنع البهجة ولا ننتظر الخلاص :

يا أيها المملوك
بكم تبيع هذه القيود ؟
فهذه الليلة لن تعود
طارت كما طار بنا بساط الف ليلة
معانقين تحت أضواء النجوم « دجلة »

٥ ـ طردية :

مع الذعر والالم يقبل الاعداء ، ومن خلال الصراع بيننا وبينهم نولد من جديد ، من خلال دفاعنا عن الحياة : بكم تبيع أيها الصياد ؟ شهادة الميلاد ؟ وعلى مرآة التاريخ تتـــداخل صور الموت والتشبث اللانهائي بالحياة والعذاب ، فنرى كاترين همنغواي تموت في أشـــد لحظات الحياة احتياجا الى وجودها . والارنب المذعور يترك مـــن دمه علامة على انه قد عـــاش يوما ما حتى وان كانت هذه العلامة على مخلب قاتليه الكلاب ، ونرى شبح المعري يستمد من عذابه القدرة على فتح كوة نبصر منها الفراغ والتفاهة التي تسيطر علينا من الخـــارج .. ومن جحيم هذه الولادة الدامية تنبثق الموسيقى معبرة عن الاحساس المرير بالزوال المحيط بالاشياء والموت المتربص بنا ، وترتفع حـــرارة الانفعال حتى يتراءى التاريخ على مرآة الحاضر :

أهكذا ينتحب العشاق ؟
ويغرق النهار في البحيرة الكبيرة ؟
وترحل الطيور
والارنب المذعور
يموت تحت قدم الصياد
مخضبا بدمه الاوراد .

ولكن ماذا يفعل الشاعر حين يغلبه الاحساس بعدم قدرته عـــلى الفرار والموت في كل مكان يضرب الحصار . انه يختم هذا المقطـــع وكأنه يقول لنا حتى لا يلتهمنا اليأس فنلجأ الى السخرية :

فلنشرب الليلة حتى يسقط الخمار
في بركة النهار .

٦ ـ الموتى لا ينامون :

حتى لا تهزمنا الشيخوخة ولا يبقى لنا الا الحسرة على التـــوهج القديم وحتى لا يغرقنا البكاء على أمس ضائع .

علينا أن ندرك هذه الحقيقة أن الموتى لا ينامون سواء المـــوتى بداخلنا ، ذكرياتنا ، حبنا العابر ، توهجنا الحسي والغريزي او موتانا جميعا ، الاسطورة والتاريخ . هؤلاء وهؤلاء يظلون مستيقظين بداخلنـا منتظرين البعث . ولقد أحس الشاعر بهذا الوجود في صورتـــه الفريودية « الفردية » والجدلية « العامة » :

شعرك شاب والتجاعيد على وجهك والاحلام
ماتت على سور الليالي ، مات « أورفيوس »
ومات في داخلك النهر الذي أرضع نيسابور
وحمل الاعشاب والزوارق الصغيره
الى البحار ...

وفي صياغة متماسكة ينتقل من العام الى الخاص . « قالت » : ومدت يدها الوداع ـ أراك بعد الغد ، في القهى .. ـ وغطت وجهه سحابة ـ من الدموع ، بللت كتابه » . شيئا فشيئا نكتشف بان مثل هذه الاشياء تخدعنا حين تعلق على موتها فنحسبها كذلك وهي فـــي الحقيقة حية كامنة ، بطريقة غامضة ، تماما كعائشة التي ماتت . ولكن الشاعر يراها تذرع الحديقة كفراشة طليقة لا تبصر السور ولا تنام .

فاذا كان علم النفس او الفلسفة قد تعرضا لهذه القضيـــة فان امكانيتهما تقتصر على مخاطبة العقل ، ورصد الخطوط العامة للظـاهرة أما الشعر في هذه القصيدة فانه يعيد صياغة الظاهرة ويمنحهـــا وجودا انسانيا ذا طابع عاطفي مؤثر ، وما دام هؤلاء الموتى لا ينـامون فان الامل في يقظتهم يتجدد ويستمر ويصير عادلا :

ايتها الجنية
تناثري حطام
مع الرؤى والورق الميت والاعوام
وخضبي النهر الذي في داخلي مات ورشي النور
في ليل نيسابور .

٧ ـ الذي يأتي ولا يأتي :

عن موت عائشة الحقيقة المتجسدة في موت المعشوقة ، الحقيقة التي تستطيع حجبها أصفر الكائنات واحقرها شانا ، الحقيقة التي يزحف عليها الزيف فلا يبقى سوى الوهن الانساني ، وقوة العدم ، والحياة المبـــددة .

من موت عائشة يولد الاحساس المستسلم بعبث الحياة ، ومـــع الذكريات تزداد المرارة والوحدة واليأس . ولكـن ما الذي سيخسره الوحيد اليائس ؟ انه يستطيع أن يتحدى قدره بلا خوف :

فلتمطري ايتها السحابة
ايان شئت
فغدا تخضر نيسابور .

لقد ودع الشاعر الرغبة في الخلاص المطلق ، وادرك معنى الحياة والموت كوجهين متلازمين للوجود الانساني ، واهتز يقينه في التحقق المقبل ، ولكنه يصر على المغامرة وينتظرها بشجاعة :

من كان يبكي تحت هذا السور ؟
لعلها الريح الذي تسبق من يأتي ولا يأتي
لعل شاعرا يولد او يموت .

٨ ـ الرؤيا الثالثة :

في المقطع الثاني من القصيدة لعنوان « الطفولة » اتخذت رؤيا الشاعر للتحول الانساني طابعا رومانسيا متشائما ، وفي المقطع الثالث من القصيدة بعنوان « الليـــل فوق نيسابور » اتخذت رؤيا الشاعر للتحول الانساني طابعـــا عدميا ، وفي هذه الرؤيا الثالثـــة تتخذ الرؤيا الشعرية طابعا جدليا ، فالحسن الصباح يتحول الى رمـــز للانسان الحر في عالم ينتصر فيه المنافقون والمارقون والخونة ، انـه شيخ يرمز الى المستقبل حيث ستتمزق المدن لتفتح البذور عيونهـا في باطن الارض وتشق دربها للنور والهواء ، وحيث ستعود الاشيـاء الصغيرة الرقيقة لتهزنا من جديد :

مولاي ، هذي زهرة تبكي على عتبة هذي الدار
وهذه اخرى على الجدار
تمد للصغار
خصلتها المعطار .

وسيولد البشر من جديد ، اولئك الذين يشقون الارض فـــي اصرار متحملين اوجاع الارض ، لتولد من اضلاع نيسابور حقـــول النـــور :

٩ ـ العودة من بابل :

لقد ماتت الاسطورة ، وعلينا ان نواجه الحياة والموت دون عـون من هذا الوسيط ، سواء تعلقت الاسطورة بشخص كالاسكندر الاكبر ، او بتاريخ حضارة مثل حضارة بابل . ورغم اننا نشعر بالحاجة الى الرجوع الى هذه الينابيع الانسانية التي تحمل تالق الحلم البشري في عصور باكملها وربما تعيننا على تحمل عبء الحياة ، فاننا سنظـل معرضين للاستغراق فيهذه الاحلام المحكوم عليها بالانتهاء وقد لا نستطيع الخروج منها ثانية .

ان البياتي يعلن بوضوح موت الاسطورة :

بابل تحت خيمة الليل الى الابد .

ويسخر في الحلم ببعثها ، حين يعيد صياغة هذا الحلم :

بابل تحت قدم الزمان
تنتظر البعث فياعشتار
قومي ، املئي الجرار
وبللي شفاه هذا الاسد الجريح
وانتظري مع الذئاب ونواح الريح
ولتنزلي الامطار
في هذه الخرائب الكئيبه .

ولكن عشتار ستظل على الجدار مقطوعة اليدين ، يعلو وجههـــا التراب والصمت والاعشاب ، لتنطلق صيحة الشاعر يدعوها الـــى الرجوع ويعلن انطفاء الحلم ، وتتضافر عناصر الطبيعة والاحســـاس بالزمن ، وأصوات الكلمات ، لتضع نهاية بالغة التوفيق لهذا المقطع :

صحت على أطلالها عشتار
فصاحت الاحجار
عشتار يا عشتار ، يا عشتار
تصدع الجدار
وغاب في الخرائب القمر
وانهمر المطر .

١٠ ـ بكائية :

عندما تتحطم رغباتنا في الحب والسلام على صخرة الواقـــع القاسية ، ونعود نبحث في وجودنا الداخلي عن سبب موت عائشـــة او قيليا ، أو نسال الاقـــدار عن الحكمة الخافية علينا في هـذه الاحداث عبثا سنعرف السر ، وستظل حبيباتنا كعائشة ضائعات كالريح في العراء ، ما لم نكتشف وجه نيسابور الآخر ، الذي يصنع الجنون والمـــوت :

فعد لنيسابور
لوجهها الآخر ، يا مخمور
وثر على الطغاة والآلهة العمياء
والموت بالمجان والقضاء .

١١ ـ الحجر :

نحن الذين نتمزق بين عجزنا ، وبين انتظارنا للمعجزة ، يتقـدم بنا العمر ، وتنطلق صرخة استغاثة اليوتية من الشاعر :

من أسفل السلم ناديتك يا رباه
جلدي يساقط في الظلام ـ
شعري شاب ....

ومع تقدم العمر نشهد التحول المحزن للاسطورة ، فها هـــو السندباد العظيم قد مات ، ودفن بورق الجرائد الصفراء ، وها هـي « ارم العماد » قد غرقت عبر الليالي ، وعصا سليمان ينخرها السوس، لتطول الغربة وتفقد الامل في المعجزة ويصير السؤال املا معلقا فـــي الهـــواء :

فاين يا رباه !
شمسك ! تحيي الحجر الرميم .

١٢ ـ الموت :

ماذا يحدث عندما يعرض الشاعر صورة القسوة والالم والغـــدر والزيف على مرآة الموت ؟ وماذا يحدث عندما ينعكس الموت على مرايا القسوة والالم والغدر والزيف ؟

الثعلب العجوز
الملتحي بالورق الاصفر والرموز
المرتدي عباءة الليل ، وفوق رأسه طاقية الاخفاء
يفتض كل ليلة عذراء .

لا بد واننا سنكتشف مع الشاعر قسوة العبث وعبث القســوة ، وسنكتشف الطبيعي في الشيء الشديد الغرابة في ظاهره ، فالموت

بحق يقرأ في كل اللغات كتب الفلسفة الجوفاء :

و ... يرمي بها النار ...

وسنكتشف الغريب فيما نحسبه طبيعيا حين ينطلق الموت بيننا :

يندس في قلب المغني ، يقطع الاوتار
يذل من يشاء
يعز من يشاء

وأخيرا سنكتشف التناقض الرهيب في هذه السخرية :

الثعلب العجوز ، مر من هنا ، سكران
حوم حول البيت واستدار
أخرج لي لسانه وسار

ان البياتي يصور المهزلة بتجسيده لمطلقاتنا في صور جزئية ، وبعرضه صورة الانسان بصورة رمزية في اطار المطلقات ، فيحدد احساسنا بمعنى وجودنا وبمعنى وجود العالم المحيط بنا ، الشيء الذي يعطي المتلقي الفرصة على نحو موضوعي ليكون اكثر تواضعا وانسانية .

١٣ ـ الوريث :

في هذا المقطع يصور الشاعر التناقض العظيم بين ضخامة ماضي الانسان وبين تفاهة الحياة اليومية الحاضرة ، هذا ما يلوح في الظاهر ، ولكن الشاعر انما يستخدم من بوذا وهوميروس ، والمغني وشهريار ، والربيع والغابات ، رموزا على داخل الانسان ، الداخل الذي عبر عن نفسه بالامس فخلق هذه الاشياء ، ثم مات ، فهو الآن يلهث على قارعة الطريق .

ينام في المقهى .. يبحث عن وظيفة شاغرة في صحف الصباح .

ومن هذا التناقض بين حياتين ينفجر الاحساس المعاصر بالانفصام في حياة الانسان ، باغترابه المرير عن ذاته في عالم لا يساعده على تخطي هذه القرية ، وها هو ما يزال :

يحوم حول سوره عريان
فاكهة محرمة
ومدن بلا ربيع مظلمة
مفتوحة ، مستسلمة
تحيا على الفتات
مات المغني ، ماتت الغابات
والعندليب مات .

الشاعر يشير الى موت الطبيعة الحسية والغريزية في داخل الانسان ، وها هو يدور حول نفسه لا يدري انه يستطيع ايقاظ هذه الموجودات المستسلمة ، ليعود الى الحياة بكامل كيانه ، ولا يكتفي بالفتات .

١٤ ـ الليل في كل مكان :

يقرر الشاعر في هذا المقطع ثلاث حقائق : كثرة أسلاب هذا الليل ـ كثرة أفراح هذا العالم الكبير ـ غضب الاجيال والموت والانتظار . وبعد أن يرسم صورة الاسلاب والافراح والغضب والانتظار، مستمدا أشكالها من عناصر الطبيعة والحياة الدائمة ، يرسم صورة أخرى مستمدة من التناقض الاجتماعي الحديث ومنطوية عليه :

الساسة المحترفون ورجال المال والملوك
سادة هذا العالم المنهوك
وأنت سيد بلا مملوك
عليك مكتوب ، بأن تحوم حول السور .

ولكن بعد أن نصل الى هذا الحد فاننا حتما سنتركه :

الليل في كل مكان وأنا أنتظر الاشاره .

١٥ ـ البحث عن الكلمة المفقودة :

أن الكلمات التي لا تقال أكثر من الكلمات التي نقولها دائما ، وها هو الخيام يغني : (ذهبنا وبقي الزمان بعدنا مضطربا ، ولم يثقب الا جوهرة واحدة من مائة واأسفاه ! فقد بقيت مئات الوف المعاني الدقيقة غير مذكورة خوفا من حمق الناس) .

لكن عبد الوهاب البياتي يكشف عن بعد ثوري جديد في هذه الحقيقة ، فهو يرى :

الزمن الضائع والارض التي تهجرها الطيور
والموت في الظهيره
في النفق المسدود
تمزق الجذور
في باطن الارض ، انهيار هذه السدود
صيحة انثى الحيوان ، رقصة الافعى على الانغام
تراكم الحزن ، اختناق الصمت في الزحام
عذابك المقيم
أشعل هذي النار في الهشيم
أيقظ نيسابور .

فالزمن الضائع والكلمات المفقودة والكفاح الذي لم يكتب له النجاح ، والوجود الباطن في الانسان والاشياء ، هو الذي يحقق الميلاد الجديد ، من خلال اصطدامه بالظاهر والسائد ، ويختفي هذا الادراك الفلسفي الجدلي ، ويذوب في حرارة الادراك الشعري :

وولد الانسان ...
شجيرة من خلل الرماد والجليد
مزهرة ....

١٦ ـ خيط النور :

رغم دموية العصر ، فانه يحتشد بأفعال البطولة ، ولكنها البطولة بمفهوم جديد ، يجمع بين مصارع الثيران الذي يواجه الموت ضاحكا من أعماقه منتظرا وحيدا ، وبين الذي يبيع علب الكبريت في مطار روما ..

بين الذي يعلم الصغار في الهند ، والذي يعدم رميا بالرصاص. فهي البطولة التي توجد في أبسط الافعال كما توجد في أعلاها دويا ، وكأن الشاعر يرى ان مجرد الحياة النظيفة ، بطولة في عالمنا المملوء بالفوضى ، ويكفي الانسان :

يزرع في الجليد
بنفسجات حبه الجديد
يزور في أعياده الموتى ، يغني ألموت في الميلاد
يحمل في ضلوعه بغداد
يمد نحو الوطن البعيد قوس قزح السماء
يجهش في البكاء
يضاجع النساء
يكتب فوق حائط السجن ، وفوق جبهة المدينه
أشعاره الحزينه .

١٧ ـ الصورة والظل :

اذا نظرنا الى الجزء السابق من القصيدة ، نستطيع أن نلاحظ ظاهرة عامة ، تفرض نفسها على كافة مراحل التجربة ، وهي ظاهرة الانفصام ، يبدو لنا متمثلا من ذلك التناقض بين صورة الغلاف وبين الداخل في المقطع الاول ، بين حياة البراءة وجحيم نيسابور في المقطع الثاني ، بين ألم الميلاد والقدرة على التحقق في المقطع الثالث ، بين لحظات السعادة العارضة وبين الجبر الاجتماعي في

المقطع الرابع ، بين السخرية وبين الموت في المقطع الخامس ، بين اللاشعور والشعور أو بين الماضي والحاضر في المقطع السادس ، بين اليأس وبين الرغبة في المغامرة في المقطع السابع ، بين الجهد الانساني وبين الفوضى في العالم في المقطع الثامن ، بين الاسطورة وبين الواقع في المقطع التاسع ، بين الجنين والضياع في المقطع العاشر ، بين الرغبة في الرحيل والعجز في المقطع الحادي عشر ، بين المطلق وصورته في المقطع الثاني عشر ، بين الانسان وتاريخه في المقطع الثالث عشر ، بين الانسان والعالم المحيط به في المقطع الرابع عشر ، بين الزمن الضائع والثورة في المقطع الخامس عشر ، بين بطولة الحياة وقسوة الصراع في المقطع السادس عشر .

وبعد أن يواجه الشاعر ظاهرة الانفصام هذه مسلطا الضوء على أكثر من جانب في الحقيقة الانسانية ، في وجودها الفردي والاجتماعي والتاريخي والكوني ، لا نشعر الا بقدر هائل من التشاؤم واليأس ، وبقدر ضئيل جداً من الامل ، ولكن في هذا المقطع يقترح تصورا جديدا للخلاص :

لو جمعت أجزاء هذي الصورة الممزقه
اذن لقامت بابل المحترقه
تنفض عن أسمالها الرماد
ورف في الجنائن المعلقه
فراشة وزنبقه
وابتسمت عشتار
وهي على سريرها تداعب القيثار
وعاد أوزوريس
لانطفأت أحزان حادي العيس
ونورت في سبأ بلقيس
وعادت البكاره
لهذه الدنيا ...

وواضح ان تصور الشاعر للخلاص يتحدد في الدعوة الى تخطي الانفصام وتجميع أجزاء الصورة حتى يكون الانسان صادقا مع ذاته مدركا لعالمه . أما البكارة هنا فلا تعني البراءة المفقودة المرتبطة باللاهوت ، وانما تعني تجدد الاحساس بالحياة ، وازدهار الداخل ، الحل اذن : هو الصدق مع الذات ، والادراك الشامل للعالم ، لنكسب القدرة على مواجهة الحياة وتغييرها مهما تكن الظروف المحيطة بنا .

١٨ ـ تسع رباعيات :

ولكن الشاعر لا يريد ان يتوقف عند هذا الحد المتفائل المهدىء ، وانما يختم قصيدته بتسع رباعيات أشبه ما تكون بتسع صرخات استغاثة قصيرة حادة مركزة تنتزع الوسائد الطرية من تحت رؤوسنا لنواجه من جديد صور الحب الفاشل والتمزق والموت والطموح الى الرؤيا الشاملة وفوضى العصر والحزن والوعود والحلم بالخلاص ثم نيسابور من جديد في النهاية وهي تخلع ثوب حزنها كالحية وتكسر الاصفاد .

خاتمة :

وبعد ، فلربما يسأل سائل : وأين حياة الخيام في هذه القصيدة ؟ ونجيب بأن القصيدة صورة عظيمة الصدق لحياة الخيام احتوت على كل معطيات عصره الهامة وكشفت عن الواقع الذي من الممكن أن يدفع بمثل تساؤلاته وأغانيه الى الوجود . انها حياة الخيام الباطنية الذي عاش في كل العصور منتظرا الذي يأتي ولا يأتي .

القاهرة — **شوقي خميس**

الراية المزروعة

أمام الحائط المبتل بالوهن
وعند الشارع المسقوف بالكفن
وقفت أراقب المشهد
على بوابة الزمن
حروف خلفها البسمات جرداء
تبعثر من سمات شحوبها نغم الشفاه ودمعة المعبد
وكادت تمحي من دوحة المولود أشياء
وتغرق في خضم اليأس بين جدائل المدن
هوية نازح وشهادة المولد
ولكن الحروف تحركت وتعانقت مثل ، الجداول ،
ماؤها العذب
يذوّب بعضه ، فيضوع من جنباته الحب
وكان تألق العصمات من صدأ السنين منارة السفن
وكان وكان ألف معانق « رأس الحسين » على بطاح
الاردن المذعور من وثن
حناجرهم تزغرد في رحاب الصمت ، (والقلب
تلفت) نحوهم يصغي الى تغريدة المنشد :
« هناك أعيش لا فرق
هناك أموت لا فرق
هناك سأزرع الراية
سأجعل من بقاء ثباتها غاية
وأصرخ في دمي : فتح من الله
وفتح من قوى القوة .. »

***

مضوا في العتمة الحمراء صخرا فوق صدر الذئب
ينهار
فتختل المفاصل من وحوش الغاب .. تحتار
مضوا فتبعتهم والظل يتبعني
ويدفعني ...
ويدفعني ...

حمص — **عبد الرحمن عمار**